فصلٌ مُقدَّم بين يدي الرسالة :
في بيان ما يُجادل فيه وما لا يُجادل، وقطع مادة الخصومة في أصل وحيِّيّة السنة
اعلم ـ وفّقك الله لطاعته، وهداك سواء سبيله ـ أنّ من أعظم ما يفتح الله به على عبده من أبواب العلم والهدى: أن يميّز بين الأصول التي لا يدخلها الجدال، والفروع التي يسوغ فيها الخلاف، فإن مجادلة الناس في المحكَمات علامةُ زيغٍ، ودليلُ انطماس بصيرة، كما قال سبحانه:{ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق}, فمن خاصم في أصل قد جعله الله محكمًا بيّنًا، فقد شابه أهل الباطل في طريقتهم، وإن لم يكن منهم في العقيدة، لأن الباطل واحد، وإن اختلفت طرق أهله، ولهذا وجب أن يُعلم أن من أصول الدين العظام التي لا يقوم إيمان عبدٍ إلا بها:
الإيمان الجازم بأن السُّنّة وحيٌ من عند الله، كالقرآن سواءً بسواء، ((ومثله معه))،
وأن من أنكر ذلك فقد أنكر أصل الرسالة، لأن الرسول إنما يُطاع بوحي، ويُتبع بوحي، ويُهتدى بقوله بوحي، ولا يكون بيانه بيانًا إلا بوحي.

فهذا أصلٌ من أمهات الأصول، ومحكمٌ من محكمات الدين، وثابتٌ من ثوابت الشرع، لا يتردد فيه مؤمن عرف ربّه، وذاق طعم الإيمان، وعرف قدر الرسول ومنزلته.
ومن أنكر هذا الأصل ـ بعد قيام الحجّة ـ لم يجادل عن نورٍ وهدى، وإنما يجادل على غير بصيرة، وقد قال تعالى:
{ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطانًا فهو له قرين} ،
والمجادلة في الواضحات من دلائل هذا العشى، إذ لا يجادل في الشمس في وضح النهار إلا أعمى، ولا يجادل في الوحي إلا من أظلم قلبه.
وقد بيّن الله هذا الأصل العظيم بآياتٍ محكمات من أمهات الآيات، فقال الله جلّ ذكره:
{ما ينطق عن الهوى @ إن هو إلا وحي يوحى @ علمه شديد القوى}
فنفى سبحانه عن نبيه ﷺ الهوى، وأثبت له الوحي، وأخبر أن جبريل علّمه، فدلّ ذلك على أن ما نطق به الرسول ﷺ في الدين، من أمرٍ ونهي، وبيانٍ وتشريع، هو وحيٌ محض، لا يخالطه رأي ولا يشوبه هوى.

ثم انظر ـ رعاك الله ـ إلى ذلك المقام الذي لم يبلغه ملك مقرّب، ولا وطئته قدم بشرٍ غيره، إلى مقام الإسراء والمعراج، حيث قال تعالى:
{فكان قاب قوسين أو أدنى @ فأوحى إلى عبده ما أوحى}، فهناك، وفي ذلك الموطن الجليل، والقرب الرباني العظيم، والتكريم الذي لم يُعط لغيره،أوحي إلى عبده ما أوحى ، ومن ذلك عمود الدين والذي لا يقوم البناء إلا به، فأُوحي إليه بالصلوات الخمسين، ثم خُففت إلى خمس، وبقي أجرها خمسين.
ولم تعلم الأمة عدد الصلوات، ولا ركعاتها، ولا تفاصيل أوقاتها، ولا شروطها ولا نواقضها، إلا بالسنة.
فهل بعد هذا البيان بيان؟ وهل بعد هذا الحكم حكم؟ وهل بعد هذا المقام مقام؟

فإن هذه الآيات العظام تُظهر جلال السنة، ورفعة قدرها، وعظيم موقعها من الوحي، وأنها قرينة القرآن، وبيانُه الذي قامت الشريعة به، فإذا خص الله نبيه بهذه المنزله وكلمه في الأفق الأعلى ، فأوحى اليه دون واسطة ملك ، ولم يكن قرانا ، بل كان الوحي {فأوحى إلى عبده ما أوحى} في مقام السنة ، فصارت السنة عظيمة في جلال ومقام القران ((ومثله معه))، فمن تأمل وتدبر بعين البصيرة والإخلاص واليقين ، هذه الايات في سورة النجم وترتيبها الإعجازي المبهر من الايات المحكمات {وهن أمّ الكتاب}, لم يبقى في قلبه ادني مثقال ذرة في عظيم مكانة السنة وانها من الوحي المنزل من الله العزيز الحكيم.

وهنا تُقال كلمة حقٍّ لا يتردد فيها من عرف الوحي،
فمن لم يؤمن بأن السنة وحيٌ من عند الله كالقرآن، فلن تنفعه الحجج العقلية، ولو حُوِّل له البحر الملح عذبًا فراتًا، لأن الإيمان أصلٌ يقذفه الله في القلب، فإذا انطفأ نوره لم ينفعه برهان ولا جدال.
ومن حاول صرف عمره في محاورة منكر هذا الأصل، فقد حاول إرواء أرضٍ سبخة لا تُنبت، وإيقاد نارٍ في حجرٍ لا يشتعل، وإحياء قلبٍ قد أماته الهوى.
فهذا الفصل ـ بحول الله ـ سدٌّ أمام الزنادقة، ونورٌ للمؤمنين، وأصلٌ جامع، وقاعدةٌ محكمة، لا يدخلها شك، ولا يثبت أمامها منكر جاحد.

وهنا بيان في كون السنة وحيًا منزلاً، وحفظ الله لها، وإقامة الدين على أصلها

(الباب الأول)
في تقرير الأصل الذي لا يقوم الدين إلا به، وأن السنة وحيٌ من عند الله :
الحمد لله رب العالمين، الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله، المبلغ عن الله أمره ونهيه وخبره، الذي ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى،
وإنه معلوم عند الخاصة والعامة، من دين الإسلام بالضرورة، أن ما جاء به رسول الله ﷺ من البيان والتفصيل، والأمر والنهي، والتحليل والتحريم، فهو وحي من عند الله، أوحاه إلى رسوله كما أوحى إليه القرآن، وأن طاعة الرسول طاعة لله، وأن مخالفته مخالفة لله، لأن الله تعالى قال في كتابه المبين،
{وما ينطق عن الهوى @ إن هو إلا وحي يوحى}
وهذه الآية أصلٌ قطعيّ في الباب، لا يحتمل تأويلاً ولا يُقبل معه جدل، وقد أجمع المفسرون على أن المراد به كلامه ﷺ في الدين
انظر تفسير الطبري (٢٧/٣٠٦).
وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال
((ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه))
رواه أبو داود وأحمد بسند صحيح
انظر: مسند أحمد ٢٨٦٢، سنن أبي داود ٤٦٠٤
وهذا نصٌّ في أنّ معه وحيًا غير القرآن، وأن ذلك الوحي مماثل للقرآن في أصل التشريع.
وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله
[فكل ما قال رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن أو أوحى إليه بوحي غير القرآن]
الرسالة (ص ٥٣)، وقال رحمه الله:
[لا تقوم حجة إلا بكتاب أو سنة] الرسالة (ص ٣٩).
وقال أحمد بن حنبل رحمه الله
[من ردّ حديث رسول الله فهو على شفا هلكة]
طبقات الحنابلة ١/٢٤٣.
وهذه النقول وغيرها تبين أنّ الأمة مجمعة على أن السنة وحي، وأن من خالف ذلك فقد خالف سبيل المؤمنين.

(الباب الثاني)

في بيان حفظ الله للسنة كما حفظ القرآن، وأن الحفظ لازم للوحي كلّه، وقد دل كتاب الله على أن الوحي كلّه محفوظ، قال تعالى:

{إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}

والذكر على لسان العرب والشرع هو، الوحي كلّه، قرآنًا وسنةً، وقد قال ابن جرير الطبري

[الذكر هو القرآن وما يتبعه من البيان]

تفسير الطبري ١٤/٨.

ولو كان القرآن محفوظًا وحده دون السنة، لبطلت الصلاة، ولم يُعرف عدد ركعاتها، ولا صفة زكاتها، ولا أحكام صيامها، ولا أعمال حجها، ولا تفاصيل الحدود، بل ولا تفسير القرآن نفسه، لأن القرآن أمر بالصلاة ولم يبيّنها، وأمر بالزكاة ولم يفصلها، وأمر بالحج ولم يشرح مناسكه، وإنما جاء البيان كله في السنة، فكان لزامًا أن تشمل آية الحفظ نوعي الوحي.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

[السنة قاضية على القرآن، مفسرة له، ولا يستغني عنها القرآن بحال]، مجموع الفتاوى ١٩/٨٤.

وقال رحمه الله:

[وحفظ الله لدينه يشمل حفظ بيانه، وبيان القرآن هو السنة] مجموع الفتاوى ١٣/٢ .

الباب الثالث:

في بيان الأسباب الربانية التي خلقها الله لحفظ السنة، ومنها الإسناد والرجال ..

ثم من أعجب ما امتن الله به على هذه الأمة، أنه قيّض لها من أسباب الحفظ ما لم تعرفه أمة قبلها، ولا أمة بعدها، وهو علم الإسناد.

والعجب كل العجب لمن يتأمل حال الأئمة الحفاظ،

كيف آتاهم الله حفظًا خارقًا، وقدرةً عجيبة، وذكاءً ليس له مثيل، وهذا ليس أمرًا طبيعيًا، بل هو تأييدٌ من الله لحفظ دينه، فهذا الخلق العجيب، وتلك الأذهان الجبارة، ليست إلا جنودًا سخّرها الله لحفظ الوحي الآخر كما سخّر لحفظ القرآن كتّابًا وحفّاظًا وقرّاء

وقد قال ابن المبارك

[الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء] مقدمة صحيح مسلم.

وقال سفيان الثوري رحمه الله:

[الملائكة حراس السماء، والمحدثون حراس الأرض]

تاريخ بغداد ١١/٨٥.

وقال شعبة رحمه الله:

[كل حديث ليس له أصل بسند فأراه ليس بشيء]

الجرح والتعديل ١/١٧٥.

فهذه الأمة-بخلاف سائر الأمم- حُفظت سنتها بسلاسل نورانية من الرجال، كل واحد فيهم معروف العين، والحال، والعدالة، والضبط، فكان كل راوٍ يُمتحن امتحانًا في دينه وخلقه وعلمه، حتى قال يحيى بن معين رحمه الله : [لو لم نكتب من ثلاثين وجهًا ما عدناه حديثًا] تاريخ بغداد ١٣/٢٩١.

وقد كان البخاري وحده-رحمه الله-آية من آيات الله في الحفظ، حتى قال ابن حجر: [أجمعوا أنه لم يُعرف في الدنيا أحفظ من البخاري] تهذيب التهذيب ٩/١٤٤.
وهذا كله من حفظ الله لوحيه، لا من قدرة البشر وحدهم.
فعلم الجرح والتعديل ليس علمًا عاديًا، بل هو أدق علم عرفته الإنسانية، فحص الراوي في دينه، وعدالته وصدقه، وحفظه، ومشيخته، وتلاميذه، وسفره، وتاريخ ولادته ووفاته، وأسمائه، وكناه، وألقابه، وامتحانه بالاختبارات، والنظر في روايات أقرانه.
فلا يوجد في العالم نظام لتقييم البشر أعظم منه.
ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله:
[لو لا الجرح والتعديل لضلّ الناس.]
ثم تأمل - رحمك الله - هؤلاء الحفّاظ، الذين هم رجالٌ خلقهم الله لحفظ دينه، فإن القدرة الحافظة التي وُهبت للبخاري، ومسلم، وابن معين، وأحمد، وابن المديني، والدارقطني، وغيرهم من جبال الأمة، ليست قدرة بشرية مجردة، وإنما هي تأييد رباني.
فقد كان البخاري يحفظ ستمائة ألف حديث، ويُخطئ الجماعة كلهُم فيردّ عليهم، ويختبر المئة فيردّ عليهم جميعًا، هذه آيات لا تُفسَّر بالذكاء وحده.
قال الشافعي:
[ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل البخاري.]
وكل هذا تسخيرٌ رباني لحفظ الوحي ... .

الباب الرابع:
في بيان أن الدين لا يقوم إلا بالسنة، وأن القرآن وحده لا يكفي في الأحكام
فمن تدبر القرآن علم علم اليقين أن السنة ليست شرحًا زائدًا، بل هي البيان الذي لا يقوم الدين إلا به.
قال الله تعالى:{وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم} فجعل مهمة الرسول البيان، والبيان لا يكون إلا بوحي.
وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:
[كل ما جاء عن الرسول فهو من عند الله، إما قرآن يتلى، أو وحي غير متلو].مجموع الفتاوى ١٠/٢٩٠.
والإجماع منعقد عند الصحابة والتابعين على أنّ السنة مصدر تشريعي مستقل، بل كانت السنة عندهم حجة قاطعة لا يُناقشون في أصلها.
وقد قال الإمام مالك: [لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها] الاعتصام للشاطبي.

الباب الخامس:
في قطع مادة الجدل، وبيان أن من أنكر وحيِّيّة السنة لا يُناظر
وقد قال شيخ الإسلام رحمه الله قاعدة عظيمة:
[الأصل إذا كان معلومًا من الدين بالضرورة لم يُقبل الجدال فيه، ومن جادل فيه فهو مستحق للعقوبة] الصارم المسلول.
فمن أنكر وحيِّيّة السنة، فقد أنكر أصلًا لا ينازع فيه إلا زنديق أو جاهل، ومثل هذا لا ينفعه جدال، ولا تزيده الحجة إلا ضلالًا، كما قال الله تبارك تعالى:
{وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها}.

فالأصل، أن الهداية نورٌ من الله، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.
وإني – واللهِ – بعدما كتبتُ هذه الرسالة، ونظرتُ في ما تضمّنته من البراهين، ورأيتُ ما اجتمع فيها من الحجج، علمتُ أنها كافيةٌ شافية، لا يبقى معها لمبطلٍ مقال، ولا لزائغٍ جدال؛
فإن الذي خلق الأرض، وأرسى الجبال الرواسي، ورفع السماوات بغير عمد، وأنزل الماء، وجعل منه كل شيء حيًّا، سبحانه الكبير المتعال، هو الذي أنزل الوحي، وهو الذي تولّى حفظه، وهو الذي تكفّل ببيانه، وهو القائل جلّ في علاه:
{إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}
فجمع -سبحانه- في هذه الكلمة من ضروب التعظيم والتأكيد ما لا يبلغ وصفُ الواصفين مداها، فأثبت الإنزال لنفسه، وأثبت الحفظ لنفسه، وأكد بنون العظمة، وجاء بصيغة القصر والحصر، وجعل ذلك وعدًا لا يتخلّف إلى يوم القيامة.
فإذا كان القرآن محفوظًا بحفظ الله، وكانت السنة وحيًا بيّنًا كالقرآن، فلا بد – ولا يمكن في سنن الله غير ذلك – أن تكون السنة محفوظة بحفظه؛ إذ لا يُعقل أن يحفظ الأصل ويترك البيان، ولا أن يُبقي اللفظ ويضيع التفسير، ولا أن يُحكِم القاعدة ويُبطل التفصيل.
وهذا - والله - من أعظم الأدلة على أن من ينكر السنة،
إما أنه لا يعرف ربه، أو لا يعرف رسوله، أو لا يعرف قدر الوحي...
ومن جهل هذه الثلاثة فجهله في الدين أعظم من أن يُداوى، وفي قلبه من العمى أعظم من أن يُرتجى منه رشد.
وبالجملة:
فالسنة وحيٌ منزلٌ من عند الله، محفوظة بحفظه، قائمة بأسباب من خلقه، بها قام الدين، وعليها بُنيت الأحكام، ولا يقوم إسلام عبدٍ إلا باتباعها، وكل من أعرض عنها فقد أعرض عن الوحي، ومن ردها فقد رد على الله ورسوله، فهو هالك منافق زنديق كافر بالإجماع ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا، قال تعالى:
{وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}.
فمن تأمل الآية: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}
علم يقينًا أن، ذكر الله كلّه محفوظ، وأن السنة داخلٌ في الذكر، وأن الأسباب العجيبة التي قامت عليها علوم الحديث ما هي إلا مظاهر لحفظ الله.
فلا يطعن في السنة عاقل، ولا يتشكك فيها مؤمن،
ومن حاول إسقاطها فقد حاول نقض وعد الله، وهدم الدين من أساسه، ولا يكون ذلك إلا من جاهل أو منافق "زنديق" كافر.

ونسأل الله العظيم بمنّه وفضله أن يجعلنا من أهل كتابه وسنة نبيه، وأن يحشرنا تحت لوائه، ويوردنا حوضه، ويرزقنا شفاعته، ويثبتنا على الحق حتى نلقاه.
وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم